هذا المهرجان السينمائي في خانيونس

معن البياري

يستثيرُ الخبر الذي نشره «العربي الجديد»، يوم الجمعة الماضي، عن بدء عروض الدورة الثامنة لمهرجان العودة السينمائي (الدولي!) على شاشةٍ عرضٍ قماشيةٍ في منطقة مواصي القرارة غرب خانيونس في قطاع غزّة، يستثيرُ زوبعةً من انطباعاتٍ غزيرة، أولها بشأن هذا المزاج الراقي، والبديع، لدى الذين قاموا على تنظيم هذه العروض، في غضون اعتداءات جيش الاحتلال الإسرائيلي في حربِ الإبادة التي يستمرّ فيها في القطاع. وثانيها بشأن هذا الحرص لدى هؤلاء على انتظام هذا المهرجان السنوي، وكيف أمكن لهم توفير الأفلام، وتهيئة ظروف مناسبة لعرضها، تتحدّى عمل المحتل النشط في حرمان الغزّيين، وهم المنكوبون بالتجويع والنزوح والأمراض، من كل تفاصيل الحياة الطبيعية. وثالثها بخصوص ما يمكن أن يقال في نشاط كهذا، فني ثقافي مشهدي، ينتظم في أتون حرب إبادة جماعية بين خيام نازحين مشردين يغالبون أحوالا شديدة الصعوبة في تأمين المآكل والدواء، وقبلهما وبعدهما، في تيسير مقادير من هناءة البال.

وإذ يستحقّ الناشطون الذين يشرفون على المهرجان السنوي، بقيادة مديره المخرج سعود مهنّا، تحيات وفيرة على جهدهم الاستثنائي هذا، فإننا في الصحافة الثقافية والفنية مطالبون بإضاءات أوفى على هذا النشاط الخاص في ظرفيّته البالغة التعاسة، سيّما وأن الحديث يجري عن مهرجان ينشغل بموضوع العودة، وفي الصدارة منه حقّ اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم، وذلك فيما النازحون في الخيام في مواصي القرارة يتطلعون إلى العودة إلى ما تبقّى من بيوتهم ودورهم وحاراتهم في بيت لاهيا وبيت حانون وجباليا وغزّة وغيرها من مدن شمال القطاع وأريافه ومخيّماته، ومما تسعى إليه المقاومة في المفاوضات العسيرة والمتعثرة للوصول إلى وقف لإطلاق النار أن يعودوا جميعاً إلى حيث كانوا. وهذه بعض الأفلام التي أفاد تقرير «العربي الجديد» بأنه جرى عرضُها، بين الخيام وعلى أقمشة، تنبني محكياتها ومشهدياتها على فكرة العودة، كما الفيلمان، الأردني «سلطانة» للمخرج هيثم عبدالله والأسترالي «بيتنا».

سيكون من التكرار التقليديّ إياه الحديث عن إرادة الحياة لدى الفلسطينيين، وهم لا يقدرون منذ عشرة أشهر على عدّ شهدائهم اليوميين، في مواجهة شهوة القتل لدى عدوهم الفاشي. سيكون من عاديّ الكلام المعهود أن يقال، بمناسبة انتظام مهرجان سينما بين خيام نازحين في خانيونس، إن الفلسطينيين يبدعون في صناعة الفرح... وعندما تصادف خبرا عن رقصات دبكة جماعية في حفلات مرتجلة في مراكز الإيواء والنزوح يقيمها شبان وصبايا في جباليا وبيت لاهيا وغيرهما، فإنك لا بد ستعيدُ القول المستعاد عن قدرة الفلسطينيين على ابتكار لحظات فرح وسعادة، يسرقونها وهم يحاربون من أجل الحصول على ما ينجيهم من الموت جوعا وعطشا، ومن الموت بقذائف عمياء، يرمميها عليهم الباغي المعتدي. وعندما تلقى خبراً عن فلسطيني اسمه محمد سعد، يربط ماكينة الخياطة الخاصة به بدراجة هوائية قديمة، من أجل أن تعمل فيواصل مهنته خيّاطاً لتحصيل قوت عيشه وأبنائه، فإنك لا بدّ ستُدهش من قوة الإرادة لدى هذا الغزّي.

لسنا نعرف إن كان مهرجان العودة السينمائي الدولي في دورته الحالية في مواصي القرارة غرب خانيونس سيختتم عروضه بمنح أفلام وممثلين جوائزه الدورية أم سيختتم بكيفية أخرى. وأيا كان الحال، فإن الذين بادروا إلى هذه الخطوة الشجاعة والبديعة هم الأولى بالتكريم بجائزة تقدير كبرى، لصنيعهم اللافت هذا، وربما يغبط بعضنا من سيسكن له أن يشاهد الأفلام العديدة المدرجة للعرض في المهرجان الاستثنائي هذا، ذلك أن أفلاما منها لا تتوفر لنا، نحن البعيدين عن خانيونس، القريبين من الفجيعة الحادثة هناك، أن نشاهدها.

كل التحية للفنان سعود مهنا وأصحابه ... وألف وردة وردة لرواد المهرجان بين الخيام هناك.

سلام الأمر الواقع

احمد سعداوي

في هامش ما يحدث في غزّة من مآس إنسانية، ومحاكمة أخلاقية للعالم كلّه ممرّغةً بدماء وجثث الأطفال، يبدو ما يجري في الضفّة الغربية تحت ظلّ ناكن. فحسب صحيفة تايمز أوف إسرائيل، بنيت في الأشهر العشرة الماضية أكثر من 24 بؤرة استيطانية (الاسم المُلطّف للمستوطنات التي لم تحصل على موافقات رسمية)، بينما حصلت الموافقة على بناء آلاف الوحدات الاستيطانية الأخرى، وكانت نسبة زيادة الاستيطان منذ السابع من أكتوبر (2023) ما بين 7% و10%.

هذه البؤر الاستيطانية القديمة والحديثة، والمستوطنات (الاسم الشائع للتي حصلت على موافقات للبناء)، تضرب عُرْضَ الحائط بالقرارات الدولية، والشرعيات الإنسانية والأخلاقية كلّها، من دون خشية من أيّ أحد. في المقابل، تكاد قدرة فلسطينيي الضفّة على إعادة بناء، وحداتهم السكنية المهدّمة أو القديمة، أو بناء وحدات جديدة، تقارب صفراً بالمائة، بسبب مجموعة من الإجراءات الإسرائيلية البيروقراطية المُعقّدة، وهذه معلومات شائعة وليست أسراراً، تردّدها المنظّمات الدولية المراقبة لحقوق الإنسان.

وإذ يستحقّ الناشطون الذين يشرفون على المهرجان السنوي، بقيادة مديره المخرج سعود مهنّا، تحيات وفيرة على جهدهم الاستثنائي هذا، فإننا في الصحافة الثقافية والفنية مطالبون بإضاءات أوفى على هذا النشاط الخاص في ظرفيّته البالغة التعاسة، سيّما وأن الحديث يجري عن مهرجان ينشغل بموضوع العودة. وفي الصدارة منه حقّ اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم، وذلك فيما النازحون في الخيام في مواصي القرارة يتطلعون إلى العودة إلى ما تبقّى من بيوتهم ودورهم وحاراتهم في بيت لاهيا وبيت حانون وجباليا وغزّة وغيرها من مدن شمال القطاع وأريافه ومخيّماته، ومما تسعى إليه المقاومة في المفاوضات العسيرة والمتعثرة للوصول إلى وقف لإطلاق النار أن يعودوا جميعاً إلى حيث كانوا. وهذه بعض الأفلام التي أفاد تقرير «العربي الجديد» بأنه جرى عرضُها، بين الخيام وعلى أقمشة، تنبني محكياتها ومشهدياتها على فكرة العودة، كما الفيلمان، الأردني «سلطانة» للمخرج هيثم عبدالله والأسترالي «بيتنا».

سيكون من التكرار التقليديّ إياه الحديث عن إرادة الحياة لدى الفلسطينيين، وهم لا يقدرون منذ عشرة أشهر على عدّ شهدائهم اليوميين، في مواجهة شهوة القتل لدى عدوهم الفاشي. سيكون من عاديّ الكلام المعهود أن يقال، بمناسبة انتظام مهرجان سينما بين خيام نازحين في خانيونس، إن الفلسطينيين يبدعون في صناعة الفرح... وعندما تصادف خبرا عن رقصات دبكة جماعية في حفلات مرتجلة في مراكز الإيواء والنزوح يقيمها شبان وصبايا في جباليا وبيت لاهيا وغيرهما، فإنك لا بد ستعيدُ القول المستعاد عن قدرة الفلسطينيين على ابتكار لحظات فرح وسعادة، يسرقونها وهم يحاربون من أجل الحصول على ما ينجيهم من الموت جوعا وعطشا، ومن الموت بقذائف عمياء، يرمميها عليهم الباغي المعتدي. وعندما تلقى خبراً عن فلسطيني اسمه محمد سعد، يربط ماكينة الخياطة الخاصة به بدراجة هوائية قديمة، من أجل أن تعمل فيواصل مهنته خيّاطاً لتحصيل قوت عيشه وأبنائه، فإنك لا بدّ ستُدهش من قوة الإرادة لدى هذا الغزّي.

لسنا نعرف إن كان مهرجان العودة السينمائي الدولي في دورته الحالية في مواصي القرارة غرب خانيونس سيختتم عروضه بمنح أفلام وممثلين جوائزه الدورية أم سيختتم بكيفية أخرى. وأيا كان الحال، فإن الذين بادروا إلى هذه الخطوة الشجاعة والبديعة هم الأولى بالتكريم بجائزة تقدير كبرى، لصنيعهم اللافت هذا، وربما يغبط بعضنا من سيسكن له أن يشاهد الأفلام العديدة المدرجة للعرض في المهرجان الاستثنائي هذا، ذلك أن أفلاما منها لا تتوفر لنا، نحن البعيدين عن خانيونس، القريبين من الفجيعة الحادثة هناك، أن نشاهدها.

كل التحية للفنان سعود مهنا وأصحابه ... وألف وردة وردة لرواد المهرجان بين الخيام هناك.

حتّى اللقاح من أدوات الحرب في غزّة

سوسن جميل حسن

بعيداً من التطور الرهيب للأحداث في منطقتنا، الذي يضع شعوباً بكاملها في جحيم الترقّب والخوف، وانتظار ساعةٍ الصفر، التي تهدّد هذه الشعوب المنهارة والدول الفاشلة العاجزة عن حماية حياة شعوبها، هناك أمورٌ تتخلّق في الظلّ، يمكن القول عنها إنّها «قاتل صامت»، تقتل المُستقبل، وقتلٌ المستقبل يبدأ من اللحظة.

اللبنة الأساسية في بقاء أيّ مجموعة بشرية، أو أيّ شعب قادر على العيش والتطوّر، هو حماية الطفولة، التي تبدأ بالعناية الصحّية، ودعم الحياة كي تنمو بشكل طبيعي، لأنّ ما يمكن أن يقع من أمراض في هذه المرحلة من عمر الإنسان قد يُحكم مستقبله بالكامل، في حال نجاته منها، وبدلاً من أن يعيش حياة سليمة، هي من حقّه، ويصبح فرداً منتجاً، ويستثمر طاقاته وإمكاناته في المستقبل، فإنّه سيصبح عبئاً على نفسه وعلى المجتمع. وبالتالي، ستكون حياة المجتمع مُتعثّرة. بينما في الواقع هناك أمور يمكن إصلاح التقصير فيها، في ما بعد، إذا توفّرت الإمكانات، مثل التعليم والتأهيل المهني، فالإنسان قادر على التعلّم في أي مرحلة من حياته، أمّا الإعاقات الدائمة فلا سبيل إلى إصلاحها.

قال المتحدّث باسم منظمة الصحة العالمية كريستيان ليندماير، في أواخر يوليو/ تمّوز: «من المرجّح جدّاً ظهور حالات إصابة بشلل الأطفال في قطاع غزّة، في ما قد يمثّل انتكاسة للجهود الدولية للقضاء على المرض». وكانت وزارة الصحّة في غزّة قد أعلنت، في الفترة نفسها، أنّه عُثر على عيّناتٍ لـ«فيروس» المرض في مياه الصرف الصحّي. ماذا يعني هذا؟... إنّه في منتهى البساطة المُوجعة يعني أنّ شلل الأطفال بدأ يُكشّر عن أنيابه، هذا المرض الخطير، الذي لا يترك من ينجو منه بلا إعاقة مدى الحياة، بذلت منظّمة الصحّة العالمية جهوداً كبيرة في سبيل السيطرة عليه في مستوى العالم، وتراجعت حالات الإصابة به بنسبة 99% منذ 1988، بفضل حملات التطعيم واسعة النطاق، المدعومة من منظّمة الصحّة العالمية للقضاء عليه مع بعض الأمراض التي تصيب الطفولة عموماً، فالتطعيم ضدّ بعض الأمراض الوبائية أو المُعدية، التي تهدّد حياة الأطفال والمجتمعات، يعدّ من البرامج المهمّة لدى المنظمّة، كالسلّ وشلل الأطفال والخنّاق والسُّعال الديكي والكزاز والحصبة والتهاب الكبد المعوي. وكانت وزارات الصحّة في الدول هي التي تتولّى المهمّة والمسؤولية، بتخصيص فرقٍ مدرّبة في هذا المجال، بالإضافة إلى العنايا بالجانب التثقيفي من أجل نشر الوعي حول أهمّية اللقاح، والوصول إلى أكبر شريحة من المُستهدَفين، فمثلاً كان يتمّ التعاون في سورية، وهذا بالاستناد إلى ما خبرته في أثناء عملي طبيبةً في وزارة الصحّة السورية مع الجهات المؤثّرة اجتماعياً، كالمدارس والنقابات والاتحادات، وخطباء وأئمة المساجد، أو رجال الدين في دور العبادة المسيحية، وغيرهم، من أجل رفع الوعي الصحّي وإطلاع الآباء والأمهات على أهمّية اللقاح في حماية صحّة أطفالهم.

في الشهر الماضي (يوليو)، قال المتحدّث باسم منظّمة الأمم المتّحدة للطفولة (يونيسف)، جيمس إلدر: «إنّ أكثر من تسعة أشهر من الصراع تسبّبت في تراجع مُعدّلات التطعيم ضدّ شلل الأطفال من 99% إلى 89%»، وعبّر عن مخاوفه بشأن عدم وصول اللقاحات إلى الأشخاص الذين يحتاجون إليها، نظراً إلى القيود المفروضة على إدخال المساعدات الإنسانية إلى القطاع، مضيفاً أنّه «من الصعب توزيع اللقاح وسط النزوح الجماعي والبنية التحتية المدمّرة وبيئة العمل غير الآمنة على الإطلاق، وبالتالي، سيتعرّض أطفال كثيرون لخطر الإصابة بالمرض». من دون أن نغفل أسباباً أخرى، من المهامّ استهداف الكادر الصحّي من الجيش الإسرائيلي منذ بداية الحرب، وتراجع قدرة من تبقّوا يعملون في هذا القطاع المُهمّ، ضمن هذه الظروف، في استيعاب الحالات المُتدفّقة بغزارة إلى المستشفيات والمراكز بسبب الحرب.

اللقاحات علم له تاريخ. كان التطعيم الأول ضدّ مرض مُعدٍ هو التطعيم ضدّ جدري البقر، يعود الفضل في اكتشافه لطبيب الريف الإنكليزي إدوارد جينر (1749 - 1823). بعده، انطلق باحثون عديدون في علم الجراثيم والأحياء الدقيقة، مثل الطبيب روبرت كوخ (1843 - 1910)، والكيميائي لويس باستور (1822 - 1895)، في البحث عن لقاحات حيّة مشابهة، واستمرّت الجهود والدراسات والسعي إلى تقديم البرهان وإقناع العالم بأنّ اللقاحات يمكن أن تحمي من أمراض معدية كثيرة خطيرة. ولعلّ لقاح الجدري من المعركة ضدّ الجدري، لا يبقى مجال للشكّ في أنّ هناك علاقة سببية بين الاختفاء النهائي لهذا المرض في أوائل ثمانينيّات القرن العشرين، والتطعيم الشامل المستمرّ.

لقد تطوّر البحث في هذا المجال بشكل كبير في القرن العشرين، وتنوّعت أشكال اللقاحات وطرائق عملها، وفي القرن الحالي شهدنا السرعة الفائقة التي طوّرت بها عدّة فرق بحثية لقاحاً ضدّ كوفيد – 19، الذي هدّد البشرية في العام 2020. فمن حقّ الشعوب كلّها الحصول على هذه اللقاحات من دون تمييز، لكن ما يحصل في غزّة، وفي المناطق المُوارَبة بالحروب والكوارث، كمخيمات اللجوء والنزوح في سورية، وفي اليمن، وفي السودان، ومناطق أخرى، يُعطّل هذه الخدمة فائقة الضرورة.

في غزّة اليوم، في واقعها الفاضح للضمير الإنساني، يعيش السكّان في ظروفٍ تفوق التصوّر، بل المُذهل فيها كيف يبقى هناك أفراد قادرون على العيش! ويدفع الأطفال الثمن الأكبر. الأطفال خميرة الغد، إذ يعانون فيها من النتائج المباشرة للقصف والدمار، يعانون الجوع وانعدام الأمن الغذائي بالكامل، بالإضافة إلى الأمراض، فهناك حالات الإصابة بالتهاب الكبد الوبائي (أ) والزحار الأميبي (الديزانتريا)، والإسهالات الناجمة عن تلوّث مياه الشرب، وأمراض أخرى بسبب عدم توفّر المياه وسبل الوقاية والعناية بالنظافة الشخصية، إذ تُعدُّ غزّة من المناطق التي تعاني «الإجهاد المائي» بكثافة، لأسبابٍ تضاف إلى أنها تنتمي إلى منطقة الشرق الأوسط الأكثر معاناة من شحّ المياه، فهي محكومة منذ ما قبل الحرب بالحصار وسيطرة إسرائيل على مصادر المياه، فيتعرض الفلسطينيون للتمييز في حصّة الفرد على العموم، وفي الحرب الحالية رأى العالم كلّه الظروف التي يعيشها أطفال غزّة. هذا بالإضافة إلى سوء التغذية وهبوط الحالة النفسية التي تُؤثّر في المناعة ضدّ الأمراض بشكل عام.

أطفال غزّة يعانون البرد والحرّ والجوع، والرضوض النفسية والجسدية، وبتر الأطراف والإعاقات بمختلف أشكالها، واليتم، وفقدان المعنى لكلّ شيء، والرضع منهم، الذين ولدوا مع الحرب أو قبلها بأسابيع قليلة، غير مُحصّنين ضدّ الأمراض. وبالتالي، فإنّ شلل الأطفال، وغيره من الأمراض التي يسعى العالم لأن يجعلها من الماضي، تُهدّد بالانقضاض عليهم اليوم، وهذا واحد من الأهداف التي تسعى إليها إسرائيل بشكل خبيث وغير مُعلن في استراتيجيتها، الماضية فيها بإصرار: إعدام الوجود الفلسطيني فوق أرض فلسطين التاريخية.

(كاتبة سورية في برلين)

> شلل الأطفال، وغيره من أمراض، تُهدّد بالانقضاض على أطفال غزّة، وهو هدفٌ ضمن استراتيجية إسرائيل لإعدام الوجود الفلسطيني

عن اغتيال هنيّة

هدى الفاتح

استقبال الموت عند العرب مُختلف ووجهه أقلّ. هذا هو المعنى الذي يُكرّره أعداؤنا للقول إنّ وجع فَقْد الأحبة عند أبناء هذه المنطقة مختلف عن نظائره في مناطق أخرى. يمكن لحسن النيّة أن يأخذ هذه الملاحظة على محمل المديح، على اعتبار أنّ فيها ثناءً واعترافاً بالقدرة على الصبر وتجاوز المصائب، لكنّ مقصد مُردّدي هذه العبارة مختلف، فكأنهم يُبرّرون لأنفسهم، وفقاً لها، قتل مزيد من الأبرياء.

مقتل رمز كبير كإسماعيل هنيّة، يوظّف أيضاً في هذا السياق، للقول إنّ هذه الشعوب تتجاوز بسرعة أصعب الآلام، هذه الخلاصة، وعوضاً عن أن تجعل المُحتلّ يُفكّر في وسائل أخرى للتعاطي مع الثورة، وأعمال المقاومة التي لا تتوقّف، فإنّها تجعله، على العكس، يُبالغ في القصف والتدمير واستهداف المدنيين، هذه العمليات المُعتمدة على مبدأ الانتقام الأعمى جعلت الكيان يفقد أعداداً ممّن كانوا يحملون له بعض التعاطف انخداعاً بما كان يروّجه من سرديّة الحقّ في الأرض.

هكذا، يمكن القول إنّ الإمعان في المجازر والقتل الجماعي، الذي يمارسه الاحتلال الإسرائيلي، ليس مُجرّد خيار أنيّ بلا مُسوّغات، بل هو مبنيّ على نظريةٍ تستند إلى ضرورة إشاعة إحساس عام بالصدمة يدفع الجميع إلى الاستسلام، وهي نظرية طبّقت في أكثر من مكان، وأتت إلى تحقيق نتائج مُذهلة، لعلّ أبرزها إطلاق القنبلة النووية الأميركية على اليابان. ذلك الانتقام التاريخي، الذي أتفق الجميع على أنه كان أقوى بكثير من المطلوب، أدّى إلى نتائج مُهمّة غيّرت وجه العلاقات الدولية إلى الأبد. بهذه القوّة المُفرطة، وبذلك السلاح غير التقليدي، لم تنجح الولايات المتّحدة في ردع اليابان وحدها، ومنعها من التفكير قرناً مقبلاً في إعادة محاولة مقارعة الأميركيين، فقط، بل إنها استطاعت ردع العالم كلّه، الذي اعترف لها بالريادة، وبأنها القوّة الأكبر التي يجب أن يحسب لغضبها ألف حساب.

أعمال القتل الغادر والاغتيال، التي ترتكبها الأجهزة الإسرائيلية، وتُكلّفها كثيراً من الوقت والإعداد، قد تنجح في لحظتها الأولى في رفع الروح المعنوية لمن يؤمنون، تحت وقع التحليلات الخادعة، بأنّ أعمال المقاومة مُرتبطةٌ بشخصيات بعينها، وأنّ هناك اجتثاثاً يمكن بالتخلّص منها إنهاء حالة العداء من دون المساس بواقع الاحتلال. لن يمرّ وقت حتّى يتأكّد الجميع أنّ الهدف الرئيس، وهو إيجاد حالة انكسار، لم يتحقّق، بل في العكس، وكما تُثبت التجارب، فإنّ هذه الاغتيالات تدفع إلى مزيد من الحماسة، وتبقى جذوة المقاومة مُشتعلة في صدور الملايين.

يتعجّب الأعداء في تعامل شعوبنا مع الموت، ومعهم في ذلك الحقّ كلّه، فنظرتنا إلى الحياة وللهدف منها مختلفة، أمّا المقاومون فيبدون مؤمنين بقول الشاعر: «فإمّا حياةٌ تسرّ الصديقَ، وإمّا ممات يَغيظ العدا». الموت بالنسبة إلى هؤلاء، وعلى عكس كثيرين غيرهم، ليس نهاية القصّة. وفقط لنقل إسماعيل هنيّة، الذي كان كما جميع قادة المقاومة، لا يستبعد فرضية أنْ يُستهدَف في أيّ مكان، وفي أيّ لحظة، هناك مثال آخر على استقبال الفلسطيني الموت. العائدات، التي تُفرحها عمليات المقاومة الناجحة، التي يشارك فيها أبناؤها، يُفرحها بالقدر ذاته انضمام أولئك الأبناء إلى زُمْرة الشهداء، الذين هم أعلى درجةً من الجميع. كان هنيّة نفسه مثالاً لهذا، فتذكر كيف استقبل قبل أشهر خبر استهداف عائلته، وهو الهجوم الذي أدّى إلى مقتل ثلاثة من أبنائه مع أبنائهم. هنيّة، الذي استقبل ذلك الخبر عبر مكالمة هاتفية، بدا رابط الجأش وهو يُردّد: «الله يسهّل عليهم»، ثمّ، وفي تصريح آخر، قال إنّ دماء أبنائه وأحفاده ليست أغلى من دماء الشعب الفلسطيني. لم تفقد عائلة

> إمعان الاحتلال في القتل الجماعي مبني على ضرورة إيجاد إحساسٍ عامٍّ بالصدمة لفرض الاستسلام

(كاتب سوداني في لندن)

كاريكاتير عماد حجاج

الانتخابات الأميركية في الحسابات السورية

عبد الباسط سيدا

ثلاثة أشهر تفصلنا عن موعد الانتخابات الأميركية لمعرفة اسم الرئيس الـ47. هل سيكون المُرشّح الجمهوري، الرئيس السابق دونالد ترامب، وهو الذي يحظى بدعم (وترحيب) القوى اليمينية المتطرّفة في الغرب والشرق، كما تتخذه الأنظمة المُستبدّة نموذجاً لإهانة المؤسّسات الديمقراطية، والتشكيك في مصداقية الصحافيين، والتعالي عليهم، وحجب المعلومات عنهم، والحدّ من فُرص اللقاء بهم، والتهرّب من مواجهة أسئلتهم التي تمثّل ركناً أساسياً من أركان النظام الديمقراطي، لا سيّما في ميدان الحقّ في الحصول على المعلومات، والحقّ في التعبير عن الرأي، من دون أيّ خشية من المساءلة والمحاسبة؟ أم ستدخل كامالا هاريس التاريخ من بابه الواسع، بوصفها أول امرأة تفوز برأفع منصب في البلاد، والأكثر قوّة وصلاحيةً وتأثيراً، بموجب الدستور الأميركي؟

ستكون هاريس، في الوقت ذاته، في حال فوزها الذي تتعاظم درجة احتمال حصوله يوماً بعد يوم، أول رئيس اسيوي ملوّن (أسمر، أسود، لا بيهم)، وستعدو مُلهمة الأجيال الشابّة من المهاجرين الأفارقة والآسيويين، والأجيال المُتعلّمة منهم، وتمنحهم المزيد من الأمل والثقة في النفس وفي المستقبل، في المجتمع الأميركي، وذلك كلّه سيكون في مصلحة الولايات المتحدة في المستويين الداخلي والخارجي، سواء رغم الدعم القتالي الكبير الذي قدّمته لها إيران والأذرع التابعة لها، خاصّةً حزب الله، وفصائل الحشد الشعبي العراقية، كان التفاهم بين إيران وروسيا من ناحية، وبين روسيا والولايات المتحدة على دخول القوات الروسية إلى سورية لمنع سقوط السلطة الأسدية المتهالكة، من ناحية أخرى، مع إعطاء الضمانات الكافية لإسرائيل بأنّ الساحة السورية لن تكون مِيداناً لأيّ أعمال عدائية تستهدف الأمن القومي الإسرائيلي، ولن تكون مُهدّدة لها. ومن الواضح أنّ هذا التوافق ما زال ساري المفعول، رغم التطوّرات التي حدثت لاحقاً في أوكرانيا نتيجة الغزو الروسي للبلد، والالتزام الغربي العلني بتقديم أنواع الدعم كلّها لأوكرانيا لمواجهة ذلك الغزو، والاستعداد لمقارعة التهديدات المستقبلية أوروبيا بصورة عامّة.

رغم ذلك كلّه، استمرار الالتزام الروسي غير المُعلن تجاه إسرائيل على ما هو عليه، ولم تتدخّل روسيا يوماً لا بلوماسياً ولا عسكرياً من أجل وضع حدّ للهجمات الإسرائيلية الجوّية التي استهدفت (وتستهدف) على مدى أعوام مواقع الإيرانيين وأذرعهم، وذلك في سياق جهود استباقية لمنع تشكّل أيّ خطر حقيقي في الأراضي السورية مستقبلاً يمثّل تهديداً لإسرائيل. ويمكن لأيّ متابع للتحرّكات العسكرية التي تقوم بها الجيوش والمليشيات الأجنبية في الأرض السورية أن يكتشف بنفسه كيف أنّها تفاهمت في ما بينها، والتزمت حدود مناطق النفوذ التي توافقت عليها.

أمّا التحرّكات الوظيفية التي تحدّث من حين إلى آخر، هنا أو هناك، فهي لا تتجاوز عتبة محاولات استعراض القوّة، والتذكير بوجودها، وذلك استعداداً لدور تتطلّع إليه قد تؤكّل به مستقبلاً في حالٍ توافق اللاعبين الكبار المُتحكّمين باللعبة، وإن ملموساً قائماً، روّج بوتين تارّة النظرية/ الأيديولوجيا الأوراسية، وإمكانية بناء تكتّلات دولية سياسية اقتصادية في مقدورها الارتقاء إلى مستوى تكتّل السبعة الكبار، أو الاتحاد الأوروبي. ومن بين ما راهن عليه في هذا المجال تكتّل دول بريكس، ولم يكتفِ بوتين بذلك، بل عمل بالأساليب كلّها من أجل استمالة تركيا، وحزب العدالة والتنمية بقيادة رجب طيّب أردوغان تحديداً، وحاول استغلال الصعوبات الداخلية الإقليمية، وحتّى الدولية، التي يعاني منها أردوغان، عبر إغداق الوعود عليه، والتلويح بالفوائد التي يمكن أن تجنيها تركيا إذا ما كانت في صفّ روسيا، أو في الأقل محايدةً، غير ملتزمة بالعقوبات الصارمة التي فرضها الغرب على بوتين ونظامه بعد الحرب التي أعلنها على أوكرانيا، تحت اسم «العملية العسكرية الخاصّة»، وذلك تهرّباً من تبعات قانونية، وتحويراً في المعطيات الفعلية. وجدير بالذكر هنا أنّ هذا الغزو جاء بعد مرور نحو عشرة أعوام على الغزو الروسي لشبه جزيرة القرم، وهو الغزو الذي عارضه الغرب، والولايات المتّحدة على وجه التخصيص، دبلوماسياً، من دون أن تصل الأمور إلى حدّ تقديم دعم عسكري مادّي صريح من الغرب للقوات الأوكرانية، التي اضطرّت لاحقاً إلى الإعلان عن انسحابها التامّ من شبه الجزيرة، ليضمّها بوتين إلى الاتحاد الروسي، بموجب إجراءات شكلية محسومة النتائج سلفاً.

ومع تطوّر الأحداث في سورية، وبروز المؤشّرات جدّية تنذر بسقوط سلطة الأسد، رغم الدعم القتالي الكبير الذي قدّمته لها إيران والمليشيات التابعة لها، خاصّةً حزب الله، وفصائل الحشد الشعبي العراقية، كان التفاهم بين إيران وروسيا من ناحية، وبين روسيا والولايات المتّحدة من ناحية أخرى، مع إعطاء الضمانات الكافية لإسرائيل بأنّ الساحة السورية لن تكون مِيداناً لأيّ أعمال عدائية تستهدف الأمن القومي الإسرائيلي، وفي المقابل تكون مُهدّدة لها. ومن الواضح أنّ هذا التوافق ما زال ساري المفعول، رغم التطوّرات التي حدثت لاحقاً في أوكرانيا نتيجة الغزو الروسي للبلد، والالتزام الغربي العلني بتقديم أنواع الدعم كلّها لأوكرانيا لمواجهة ذلك الغزو، والاستعداد لمقارعة التهديدات المستقبلية أوروبيا بصورة عامّة.

سوف تزيد حادثة الاغتيال تسليط الضوء في غزّة العالم، والضمير الحيّ لشعوب العالم كافّة، الذي ما عاد أسلوب قلب الحقائق والتلاعب الإعلامي قادراً على خداعها. التعاطف مع مأساة غزّة واضح في الأحداث العالمية كلّها، التي كان منها دورة الألعاب الأولمبية الحالية في باريس، التي كانت مناسبة لإعلان كثيرين تضامنهم مع الشعب الفلسطيني. في مقابل ذلك الإحساس الإنساني، كان لأعبوة الاحتلال، وجمهوره، يتحرّكون تحت حراسة مُشدّدة خشية التعرّض لغضب الناقمين، وما أكثرهم!

> في حال فوز ترامب من المرجّح أن يتراجع الاهتمام الأميركي بسورية، ويُترَك الموضوعُ السوري للتفاهمات الإسرائيلية الروسية

بدرجات متفاوتة. ولعلّه من نافل القول الإشارة إلى أنّ الجانب الأميركي يبقى صاحب الأرجحية الواضحة، فهو يمتلك أوراق الضغط التي تُلزم الفاعلين الدوليين والإقليميين والمحلّيين بـ«دوزنة» الخطوات وفق الهامش المتاح أميركياً، هذا بغضّ النظر عن الشعارات المرفوعة، والخطابات النارية المسموعة، هنا وهناك.

بناء على ما تقدّم، تحظى الانتخابات الأميركية باهتمام السوريين ومتابعتهم، لأنّه في ضوء نتائجها ستتبلور ملامح الآتي الذي ينتظرهم، ويُحدّد مصيرهم ومصير بلدهم، خصوصاً في ظلّ غياب المرجعية الوطنية المُوحّدة المتماسكة التي يتمحور همها الأساس حول أولويات شعبها، ففي حال فوز ترامب، من المرجّح أن يتراجع الاهتمام الأميركي بسورية إلى أدنى مستوياته، ويُترك الموضوع السوري بأسابيع قليلة، غير مُحصّنين ضدّ الأمراض. وبالتالي، فإنّ شلل الأطفال، وغيره من الأمراض التي يسعى العالم لأن يجعلها من الماضي، تُهدّد بالانقضاض عليهم اليوم، وهذا واحد من الأهداف التي تسعى إليها إسرائيل بشكل خبيث وغير مُعلن في استراتيجيتها، الماضية فيها بإصرار: إعدام الوجود الفلسطيني فوق أرض فلسطين التاريخية.

(كاتبة سورية في برلين)

حرب الثارات النائمة وتسوية الحسابات المعلّقة

عيسى الشعيبي

على إيقاع حربٍ نشبت ولم تنشب طوال عشرة أشهر دامية، حضرت بكلكلها مراراً، وغابت بعجزها نوبة بعد نوبة، حدثت المفاجأة التي لم تفاجئ إلا ذوي المقاربات النمطية السائدة، والقراءات الرغائبية الساذجة، دخل الشرق الأوسط، الذي تلد في أحشائه الحروب من تلقاء نفسها، طوراً لا هو بالجديد، ولا هو من الماضي الذي يمضي ولا يمضي، الأمر الذي جعل حروبه المتواصلة قدراً مُقدّراً لهذه المنطقة المُستباحة، المسكونة بالصراعات والتدخّلات والتقلّبات، المفتوحة على الاحتمالات السيئة، بما في ذلك الدوران في حلقة نار مفرغة.

قاربت هذه الزاوية، قبل نحو شهر، الموقف المُتحوّل بين عشية وضحاها، من زاوية مختلفة عن توقّعات محمولة على اعتقادات وافتراضات مُجمعة على أنّ الحرب الكبيرة ليست وشيكة، وربّما ممنوعة، من منطلق أنّ الأطراف المعنية غير راغبة فيها، وليس لها مصلحة في نشوبها، أقلّه في هذه المرحلة، حيث انبثقت وجهة النظر البديلة هذه من أنّ لكلّ حربٍ منطقها، وسياقها المُستقلّ عن سابقاتها، كما أنّ لكلّ حرب خطابها، الذي يجعل كلّ طرف من أطرافها أسيراً لسرديّته واعتباراته ودَعَاته، وصورته عن نفسه، سواء التي في مرآة «الغير» أو في مرآة ذاته.

كان تقدير الموقف آنذاك مُؤسّساً على قاعدة أنّ الوضع، بسقفه المُنضبط نسبياً في جبهات الإسناد، لن يظلّ على حاله، مع تفاقم الاشتباكات وتزايد التحدّيات، إن لم نقل إنّه بدأ في واقع الأمر يخرج تدريجياً عن السيطرة، وأنّ المواجهات الذاهبة من تصعيد شديد إلى تصعيد أشدّ ستفضي، بالضرورة الموضوعية، عند أول نقطة فارقة، إلى الانزلاق عن حافّة الهاوية.

خلال الأسبوع الفائت، وقعت النقلتان النوعيتان الكفيلتان، كلّ منهما على حِدَة، بإشعال الحرب التي لا يمكن وصفها بأنّها إقليمية أو مُجرّد جولةٍ كبرى خاطفة أو محدودة، إلى أن تأخذ ردّات الفعل مداراتها المُحتملة، وتحفر متوالية ردّة الفعل على الفعل مجراها الرئيس، أو يقع مُتغيّر ليس ضمن الحسابات المسبقة، كأن تجد واشنطن نفسها، عشية معركة انتخابات رئاسية حامية الوطيس، مُكرهةً على إملاء ما امتنعت عن إملائه على ابنها الشقي المُدلّل، ونعني فرض وقف إطلاق النار في غزّة، درءاً لتوسّع الحرب أكثر، وامتدادها إلى ساحات أخرى، ليس للدولة العظمى الوحيدة مصلحةٌ حيويةٌ فيها. وفيما راح يستبدّ بالقادة الإيرانيين وحلفائهم حسّ ثقيل بالإهانة إزاء ما حدث في بيت الضيافة في طهران، باغتيال إسماعيل هنية، وبتبرير آخرين نعيهم بمُذكّرات تفسيرية تبدأ وتنتهي بنفي صلتهم بالإخوان المسلمين، وبحركة حماس، وبالإسلام السياسي، وتُؤكّد الاختلاف مع الشهيد وفصيله وفِكره، وربّما شهادته، قبل أن ينعى الناعي «نعيّة» ويجري. وذلك كلّه من دون أن نتجاوز حدود التيّار الديمقراطي، على تنوّعه، وأقلامه «الحرّة» المحسوبة على ثورات الربيع العربي، إلى أقلام مسمّمة بالكراهية، زايدت على شعاراته الرجل، الذي مات واقفاً، وأعادت تدوير نفايات خطابات أنظمة التطبيع العربي على المقاومين كافّة، وخياناتهم وثرواتهم وأموالهم وفنادقهم... إلخ.

ما سيغيّره موقف فرنسا الجديد في الصحراء وشمال أفريقيا

عبد الحميد اجماهيري

يرى الخبير الفرنسي في الجيوسياسة، مؤسّس ورئيس معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية، باسكال بونيفاس، أنّ كلمة واحدة وردت في رسالة الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون إلى العاهل المغربي محمّد السادس بخصوص قضية الصحراء، كانت كافية لصناعة تاريخ جديد للعلاقة بين البلدين. هذه الكلمة («الوحيد») وردت في عبارة ساكن قصر الإليزيه، يقول فيها: «بالنسبة لفرنسا، تُشكّل خطّة الحكم الذاتي الأساس الوحيد للتوصّل إلى حلّ سياسي عادل ودائم، ومتفاوض عليه».

اكتسبت الكلمة فرادتها التاريخية من أنّها «جديد» فرنسا في قضية الصحراء المصيرية بالنسبة للمغرب، باعتبار أنّها كانت خطوة حاسمة بالغة الأهمّية والدلالة في تحوّل الموقف من دعم للحكم الذاتي، كما عبّرت عنه فرنسا منذ 2007، تاريخ تقديم المُقترَح المغربي، باعتباره من بين صيغ أخرى للحلّ، إلى اعتباره الأساس الوحيد للحلّ. ما تعلّق بباقي كلمات العبارة أعلاه، نجده في قرارات الأمم المتّحدة (مجلس الأمن تحديداً) كلّها، الخاصّة بالملف منذ 2008 في الأقلّ. وسبق لرئيس الحكومة الإسبانية، بيدرو سانشيز، أن دخل التاريخ، وقلب المعادلة في منطقة شمال أفريقيا وحوض المتوسّط بالكامل. هو أيضاً غيّر تاريخ علاقة إسبانيا بالقضية الترابية للمغرب، ومنها تاريخ العلاقات الجيوستراتيجية في المنطقة، التي ما زالت تفاعلاتها مستمرّة. اعتبار المقترح المغربي الأساس الوحيد للحلّ

> ستصبح فرنسا، إلى جانب أميركا، الشريك الدولي الثاني في تدبير الحكم الذاتي للصحراء

يعني أنّ السيادة المغربية هي الأفق الوحيد له، وأنّ المساعي للعودة إلى فكرة أخرى، منها الاستفتاء المفتوح على إمكانية إنشاء دولة سادسة في المنطقة، لم تعد ذات معنى. لكنّ كلمة الوحيد ليست هي المشترك الوحيد بين إسبانيا وفرنسا، اللتين توزّعتا المغرب في أثناء تقاسم العمل الاستعماري في بداية القرن الماضي. ولعلّ المغرب كان بذلك البلدَ الوحيدَ (على الأقلّ عربياً وأفريقيا)، الذي اقتسمت باريس ومدريد تُرابه.

لعلّ أكبر تحوّل وأدق إنجاز، من جهة التاريخ، ما حققه محمّد السادس للمغرب في قضية الصحراء، وهو مساعدة العواصم الاستعمارية السابقة على إنضاج علاقة جديدة، بل يمكن القول إنّه حرّرها من شرطية استعمارية ظلّت تتحكّم ضمناً أو صراحة في التعامل مع القضية، وهي عملية إنضاج جاءت أحياناً كثيرة على نار غير هادئة، باعتبار أنّ التحوّل الإيجابي كان نتيجة دبلوماسية هجومية، وصلت حدّ الأزمة الفاصلة مع الدولتين (إسبانيا وفرنسا) معاً، وبناءً على ندّية غير مسبوقة، قراءة جيّدة للتحوّلات الجيوستراتيجية، وتعاملاً عقلانياً مع هامش المناورة الذي فتحه النظام الدولي الجديد لنظام مُتعدّد الأقطاب... إلخ.

كان لكلمة واحدة قوّة تغيير الدبلوماسية الفرنسية وأهلها، ستغير معادلاتٍ كثيرة، ليس لأنّ الرئيس ماكرون أراد أن يجعل الالتزام الجديد للجمهورية «التزاماً وطنياً ودولياً»، فقط، بل لأنّ تلك الكلمة ستفتح كثيراً من صناديق التاريخ، وتعيد حقائق كثيرة إلى الواجهة. لقد قالت رسالة ماكرون إنّ حاضر الصحراء ومستقبلها يندرجان في إطار «السيادة المغربية»، في الوقت الذي يحضر الماضي خلفية حقيقية في قضية مثل هذه. ولعلّ في جواب العاهل المغربي على رسالة ماكرون، إشاراتٍ ذات دلالة بالغة في إحالة على هذه النقطة، فأولاً، شدّدت الرسالة على الاعتراف للمغرب بأسانيده القانونية و«حقوقه التاريخية» في الموقف الفرنسي الجديد. وثانياً، صدر القرار عن بلد مُطّلع وثيق الصلة بماضي شمال أفريقيا وحاضرها، وشاهدٍ من كثب على تطوّر هذا النزاع. ليست هذه الإحالات التاريخية درساً في الجغرافيا أو استرجاعاً للحوليات التاريخية من باب تأثيث دبلوماسية الحاضر فقط، بل هي جزء من عمق المشكلة، وتُلقي على الإليزيه قولاً ثقيلاً، ففرنسا صانعة خرائط شمال أفريقيا، ولعلّ المقصّ الديغولي فصّل دولاً في مقاس وحدود أماكن أخرى، وأنشأ أنظمة في مقاس الحكم الكولونيالي، وما إلى ذلك.

لقد ربح المغرب عضواً في مجلس الأمن، هو ثاني دولة كبيرة من بين الخمس الدائمة في الجهاز التنفيذي الأممي، تعترف صراحة بالسيادة المغربية، وهذا ربح سيغيّر كثيراً من معايير تقدير الموقف حول الصحراء في المنطقة. ستصبح فرنسا إلى جانب الولايات المتّحدة الشريك الدولي الثاني في تدبير الحكم الذاتي، مدعومتين في ذلك بمواقف 84% من الدول الأعضاء في الأمم المتّحدة، لكنّ الذي ستضيفه فرنسا لا تستطيع أي دولة غير إسبانيا تقديمه، في توضيح حقيقة الوضع، والخروج من ذلك الالتباس التكتيكي، الذي تحكّم في مواقفها بين الرباط والجزائر. فرنسا هي أيضاً شاهدة على نفسها كما فعلت إسبانيا، وسيكون عليها أن تغادر تاريخَ القرن العشرين الذي عبرته دولة استعمارية، إلى دولة القرن الواحد والعشرين، التي حرّرتها مستعمراتها السابقة من تردّدها، ورماديتها... وللموضوع بقيّة.

(كاتب وصحافي مغربي)

الاغتيالات الإسرائيلية في غزّة قد تكون الأصعب

باسل خلف

بعد محاولة التسلّل الفاشلة لـ15 عنصراً وضابطاً من وحدة هيئة الأركان العامّة الإسرائيلية، المعروفة بـ«سيريت ماتكال»، إلى قطاع غزّة، في نوفمبر/ تشرين الثاني 2018، أعلنت كتائب الشهيد عزّ الدين القسّام أنّها عثرت على «كنز استخباراتي ظنّ الاحتلال أنّه دمّره تحت كثافة النيران» في تلك الليلة الصعبة. مرّت 60 يوماً بين الحدث وإعلان كتائب القسّام تفاصيلَ ما سبقه وما تلاه.

دُعيتُ من بين عدد قليل من مراسلي وسائل الإعلام العربية والأجنبية بعد ذلك، للقاء مسؤول بارز في المقاومة الفلسطينية. وصلت إلى المكان غربي مدينة غزّة. وفي إجراءات أمنية مُشدّدة دخلنا القاعة من دون هواتفنا النقّالة بطلب من الحُرّاس. يدخل قائد لواء وسط قطاع غزّة، والمسؤول في استخبارات كتائب القسّام في تلك المرحلة، أيمن نوفل، حاملاً حقيبة سوداءَ صغيرة، يرافقه مسؤول رفيع في جهاز الأمن الداخلي غير مُلتَحٍ، ويرتدي بذلة رسمية من دون ربطة عنق، عرفتُ لاحقاً أنّه كان بين المُعتقلين في سجون الاحتلال، خلال مهاجمة الأخير مرفقاً في مدينة غزّة في مارس/ آذار الماضي. يجيب نوفل، الرجل المعروف في كتائب القسّام بسرّيته، بأنّ الكتائب اتّبعت نمطاً عسكرياً مُختلفاً، في أثناء محاولة التسلّل الفاشلة وبعدها، باعتبارها محطّة فاصلة في أمن القطاع الذي تديره حركة حماس.

أقرّ نوفل بأنّ عقلية الكتائب العسكرية تغيّرت بعد إجراء مراجعات منذ اغتيال القائد العام أحمد الجعبري (شتاء عام 2012)، حينما قصفت المقاومة تلّ أبيب بسرعة ردّاً على الاغتيال، في إشارة منه إلى ضرورة إعطاء مساحة للعمل الأمني الميداني، وفهم سياق الاغتيال وحيثياته قبل الردّ. كان الرجل يتحدّث، بينما أستذكِرُ ما رأيتُه صباح اليوم التالي للعملية، حينما وصلنا إلى المكان للتغطية الصحافية، بعد ليلة قضيتُها في مستشفى غزّة الأوروبي القريب من المكان. جَمع أشخاص، لم نكن نعرفهم، ما تبقّى من حطام وقطع وبقايا في مسرح الحدث، في منطقة حدودية زراعية مفتوحة، تحوّلت إلى ما يشبه ساحة حرب شرقي مدينة خانيونس، جنوب قطاعِ غزّة، لاحقاً، قالت «القسّام» إنّها حللتها، واستنتجت منها تفاصيل الحدث، والهدف الإسرائيلي، الذي كان يقصد زراعة أجهزة تجسّس لاختراق دائرة الاتصالات السرّية الخاصّة بالكتائب.

> قدرة عناصر «وحدة الظلّ» على المناورة، في هذه المرحلة بالنسبة إلى «القسّام»، تعني الحفاظ على هيكل الكتائب متماسكاً، رغم الضربات التي لا تتوقّف

يظهر ممّا سبق كلّه اعتماد المقاومة سياسة المراجعات الداخلية في مواجهة أساليب الاحتلال وأدواته الأمنية، فيما كانت تصفه بـ«حرب الأدمغة». ومع مسلسل آخر اغتيالات في كلٍّ من لبنان وإيران وغزّة، وقراءة السلوك الإسرائيلي، وحيثيات كلّ عملية اغتيال على حِدَة، نرى أنّ الاحتلال يواجه في غزّة مصاعب أكبر بكثير، في الوصول إلى أي شخصية منها، من أي مكان آخر.

استهداف صالح العاروري وفؤاد شُكر في معاقل حزب الله في لبنان، واستهداف إسماعيل هنيّة في العمق الأمني الإيراني، يعكسان حالة اختراق واضحة، وقدرة عسكرية استخباراتية إسرائيلية.

وبالعودة إلى أكثر وحدة في «القسّام» أهمّية، هي «وحدة الظلّ»، المنوط بها تأمين الأسرى الإسرائيليين في قبضة المقاومة. ومن واقع الميدان، شهدت تفاصيل محاولة تحرير أسير إسرائيلي فاشلة في مخيّم النصيرات للاجئين وسط قطاع غزّة خلال الحرب، وزرت المكان، وتجوّلت فيه مشياً على الأقدام. أظهرت الوحدة قدرتها في حينه على المناورة والتنبؤ بالسلوك الإسرائيلي، الذي جاء هذه المرة عبر قوّة تركب سيّارة إسعاف خدماتية، وهو أمرٌ مُتوقّع، وسلوكٌ مُكرَّرٌ للاحتلال. ورغم كثافة النيران، لم تستطع الوحدة الإسرائيلية الخاصّة تخليص الأسير، بل تسبّبت في مقتله. لكنّ إسرائيل لم تتوقّف عن المناورة العسكرية. نجحت في رفح، وفي سوق النصيرات تالياً، في تخليص أسرى أحياء، وانتشال جثث أسرى من مواقع توغّلت فيها في جباليا، وخانيونس، وغزّة المدينة.

يضع الاحتلال الأخوين السنوار هدفاً مُعلناً منذ بداية الحرب، يشرف محمّد السنوار، صاحب الشخصية الغامضة، على عمل وحدة الظلّ، وحراسة من تبقّى من قادة الحركة السياسيين والعسكريين في غزّة، بينما عُرف عن شقيقه يحيى السنوار إفراطه في الحسّ الأمني في آخر سنواته. سمعت كثيراً عن هذا الأمر من عناصر في «حماس» و«القسّام»، ومن مصادر أخرى. استطاعت المقاومة المناورة هذا الوقت كلّه، والحفاظ على سرّية أماكن وجود الأسرى، رغم عددهم الكبير نسبياً، أحياءً وأمواتاً، تخلّلها قصف بأطنان المتفجرات، مع تقديرات بكلفة مرتفعة للحرب، ولحجم الخسارة الكبيرة، التي لحقت (وتلحق) بالمدنيين في غزّة. وبينما يكتوي الناس في القطاع بنار الحرب، وتُهدّد إسرائيل بالوصول إلى الأخوين السنوار، وأعضاء المجلس العسكري، والقضاء على عناصر «حماس» وقادتها الميدانيين، والمراهنة على تحرير ما تبقّى من الأسرى بالقوّة، وليس بصفقة تبادل فقط... في خضّم هذا كلّه، تعمل وحدة الظلّ، فوق الأرض وتحتها، لإفشال هذه الأهداف. وتعرّضت الأجهزة الأمنية الحكومية في غزّة لضربات أحدثت اختلالاً في منظومة الأمن في مستوى الخدمات المدنية، وتنامى ذلك مع مرور أيّام الحرب، لاحظته خلال مائتي يوم من التغطية، ويلاحظه الناس يومياً في مناطق القطاع، خاصّة المُكتظّة بالنازحين. بينما تكافح أجهزة أمن «القسّام» للعمل على الأرض، لجهة التنسيق مع فصائل المقاومة، وتهيئة مواقع القتال للعناصر، بما يتاح من أدوات، في ظروف مُعقّدة للغاية.

تبقى وحدة الظلّ، التي لا يُعرَف تعداد عناصرها ومصيرهم، حجر الزاوية في هذه المرحلة بالنسبة إلى «القسّام»، فقدرة عناصرها على المناورة تعني الحفاظ على هيكل الكتائب متماسكاً، رغم الضربات التي لا تتوقّف يومياً، بينما الوصول إلى الأخوين السنوار تحديداً، ومن معهم من أسرى إسرائيليين في قبضة المقاومة (وهو سيناريو صعب لكنّه ليس مستحيلاً)، يعني ضرب الكتائب ضربة موجعة ستُؤثّر فيها سنوات طويلة، وتؤثّر قبل ذلك في معنويات العناصر التي تقاتل على الأرض، وفي تماسكهم في الحرب، التي ما زالت مستمرّة منذ أكثر من 300 يوم.

(من أسرة التلفزيون العربي)

تعليم المستقبل والذكاء السالب للذكاء

نور الدين سالمي

كثر الحديث عن الذكاء الاصطناعي، حتّى كاد يكون حديثَ الساعة. ولا يعتقد كاتب هذه السطور أنّ هذا الذكاء مُنتهَى التكنولوجيا وتطوّرها، إذ لا يزال يُؤثّر في مجالات كثيرة ويوجّهها ويُغيّرها ويُعمّقها. وقد يكون التعليم من أكثر المجالات استفادةً من التكنولوجيا عموماً، ومن الذكاء الاصطناعي خصوصاً، ولسوف يكون الأثر أكثر عُمقاً في المستقبل. وإذا كان التعليم من أولويات التنمية المُستدامة، ومن أكثرها إلحاحاً، بعد الصحّة والغذاء، فإنّه يُعَدُّ من أعظم الاستثمارات في حياة الفرد، وفي مستقبل الجماعات والأمم، فكيف تبقى التكنولوجيا عموماً، والذكاء الاصطناعي خصوصاً، رافعةً للتعليم في المستقبل؟

لا يخشى الكاتب على التكنولوجيا، وطبعاً لا يخشى التكنولوجيا. ولا يشكّ في مآثرها، وفي دورها في تطوير التعليم، وجعله مُبتكراً ومُتميّزاً ومواكباً، لكن تساوره مخاوفُ جمّة بشأن استعمالاتها، وبالأساس الذكاء الاصطناعي، فهل هو، في المطلق، حاضن وداعم ورافع للذكاء البشري؟... هذا فيه كلام وآراء. ويبدو أنّه لا يمكن الإطلاق هنا، خاصّة أنّنا نرى فقدان كثير من القدرات لدى عموم الناس، أو في الأقلّ نقصٌ وتراجعٌ في كثير منها، ابتداءً من الخطّ والكتابة، إلى الكتابة السليمة من الأخطاء، وصولاً إلى الخطر على الأمانتين، العلمية والأدبية، لما يظهر من استعمالات للذكاء الاصطناعي في البحوث العلمية، وحتّى في الشعر والرواية. لهذا، يبدو جانب الأخلاق موضوعاً في غاية الجدّية في هذا المجال عموماً. نتحدّث هنا عن الأخلاق ببُعدِها الحضاري والقيمي والجمعي، وليس في جانبها الديني الضيّق. وحتّى نتجنب أو في الأقلّ نحد من هذه التأثيرات السلبية، وجب التذكير وتأكيد أنّ الإنسان يبقى هو المركز والجوهر بالعقل والحكمة. نحن نريد ذكاءً اصطناعياً

> عندما تثار مسائل التعليم ومستقبله وتطويره، عربياً، سرعان ما يزيغ الحديث عن المتعلّم، الذي هو هدفُ العملية التعليمية ومحورها

رافعاً للذكاء البشري، وليس سالباً له. فيا خيبة المسعى، لو أدّى بنا تطوّر الأول إلى تقهقر الثاني أو اندثاره! نريد في مدارسنا وجامعاتنا ومؤسّساتنا ومجتمعنا أفراداً يمتلكون التكنولوجيا ومطوّعين لها لغاية تنمية البلاد وخير الشعوب، وليس أفراداً متواكلين على التكنولوجيا لأبسط حاجياتهم، أو عاجزين مُتبلّدي العقول، متكاسلي الأجسام، ذوي أذهانٍ متكلّسةٍ، وأجسامٍ متثاقلةٍ خاملة.

شهد التّعليم في العقدَين الأخيرَين تطوّراً كبيراً ومتسارعاً، وسيشهد موجاتٍ من التطوّر في المستقبل. ولن يزيد الذكاء الاصطناعي خطواته إلّا جدّية واستحثاثاً وتسارعاً. ومن نافلة القول هنا إنّه وجب التذكير بأهمّية بعض أعمدة نجاح التعليم للمستقبل، ونخصّ بالذكر والتذكير المهارات اللّيّنة (Soft Skills)، وريادة الأعمال، وانفتاح الجامعة والمدرسة على المجتمع والمحيط والمؤسّسة. في أغلب الدول العربية، لا يخدم التعليمُ واقعَ المجتمع. فهو لا يزال تقليديّاً وتلقينيّاً، وفي أفضل الحالات، أكاديميّاً يطغى عليه البعد النظري. لهذا يضطر الطالب بعد الانتهاء من دراسته الجامعية إلى التدرّب بعد التخرّج، كي يكون له الحدّ الأدنى من المهارات لخوض تجربةِ عملٍ أولى. ولا غرابة في عدم وجود صادرات عربيّة في المعلومات والتكنولوجيا، أو تكاد. ومنه وجب التركيز على التعليم الريادي، تعليمٌ يركّز على مهارات الحياة، تماماً كما يُركّز على المعارف والعلوم، ويكون نقديّاً وخلّاقاً، يُنمّي لدى الطالب مَلَكات الابتكار والاختراع. يطول الحديث عن المهارات اللّيّنة، لكن من الضروري تأكيد أنّ لشعوبنا خزّاناً ليس عند كثيرين غيرها. ويمكن لهذا الخزّان أن يرعى مهارات كثيرة ويثبّتها وينمّيها، وهو خزان الأسرة، فللوالدين مثلاً دورٌ عظيم في هذا الشأن، وكما يقال التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، فمن الضرورة بمكان أن يتجذّر النشء في هُويّته، وينهل من عمقها ومكارمها. وإلّا فلا مهارات ولا كفاءات مناسبة للواقع. أيضاً، لن يتردّد كاتب هذه السطور في إعادة تأكيد ضرورة أن يكون للغة العربية مكانها في الكفاءات والمهارات، وهذا سبيل الأمم كلّها، فلا مستقبلَ لأمّة تدرس بلغة غيرها، وغير مُتجذّرة في عمقها الحضاري، وغير مُعتزّة بهُويّتها. فأصلاً لن تجد الحلول لمشكلاتها، ولن تُغيّر نحو الأفضل واقعها، إذا لم تستجب له بالحلول الكفيلة النابعة من خصوصيّاتها.

لكنّ عدم قدرتنا على استشراف مستقبل التعليم والتكنولوجيا لا يعفينا من التفكير مليّاً، وبعمق، في كثير من الأشياء. فالتعليم يبقى من أكبر الاستثمارات وأعظمها وأدومها. ولبلوغ الغايات وتحقيق أفضل المآلات في دولنا العربية، وَجَب أولاً، وقبل كلّ شيء، أن يكون الطالب محوَر العملية التعليمية، يجب أن يُعتبَر حقّاً قلب الرحى ومربط الفرس. لأنّه، مع الأسف، في دولنا العربية عادةً، عندما تثار مسائل التعليم ومستقبله وتطويره، سرعان ما يزيغ الحديث، وينحرف التفكير، عن الجوهر، ويستبدل به جدلٌ عن وضع المُدرّسين والنقابات والوزارات وغيرها... وتغلب مصالحُ هؤلاء فُرادى أو مجتمعين مصلحةَ الطالب، الذي هو هدفُ العملية التعليمية قاطبةً ونقطةُ ارتكازها، ومحورها وصميمها وكُنْهُها. أيضاً من الضرورة بمكان أن يتميّز التعليم اليوم بتنمية الحسّ النقدي لدى النشء، وزرع الفضول لديهم، والرغبةَ في تعلّم المزيد. فالتركيز على التعليم الشخصي أو التعليم الذاتي أصبح اليوم حاجةً مُلحّة، إذ لا بدّ أن يكون الطالب قادراً على الأخذ بيده حتّى يواصل عملية التعليم في الظروف كلّها. فأزمة كورونا أثبتت أنّه قد يستحيل (في ظروف استثنائية يمكن أن تمتد أشهراً أو سنواتٍ) مواصلة عملية التعليم، إلّا إذا أخذ بيد الطالب، وكان مُستعدّاً للتعلّم الذاتي. هذا علاوة على ظروف الحروب والأزمات والصراعات، التي تطغى منذ سنوات عديدة في رقعة كبيرة من الوطن العربي. حال كارثي بأتت فيه كثير من المدارس والجامعات والمعاهد ثكناتٍ أو مواقعَ يتحصّن فيها محاربون. في المدرسة التي كان يرتادها طالبٌ، سلاحُه قلم رصاص يخطئ ويصيب، وعندما يُخطئ يمحو خطأه ويصوّبه، أصبح يتحصّن فيها مقاتلٌ سلاحُه بندقيته، يُطلق الرصاص، يصوّب ليقتل. لا يُخطئ التصويب، ولا يمكنه أن يمحو أثر خطئه.

(أكاديمي تونسي في الدوحة)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **معن البياري** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads